١٦٥٩٣

في مكان التفسير :

# تقديم لكتاب "مجمع البيان"

## بقلم فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت

### وكيل الجامع الأزهر

بمناسبة انتهاء دار التقريب من إخراج الجزء الأول من كتاب « مجمع البيان في تفسير القرآن » للعلامة الطبرسي من كبار علماء الشيعة الإمامية ، تثبت في مكان التفسير من هذا العدد المقدمة الرائعة التي تقدم بها فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت لهذا الكتاب .

١

« . . . . . وشمرت عن ساق الجد ، وبذلت غاية الجهد والكد ، وأسهرت الناظر ، وأتعبت الخاطر ، وأطلت التفكير ، وأحضرت التفاسير ، واستمددت من الله سبحانه التوفيق والتيسير ، وابتدأت بتأليف كتاب هو في غاية التلخيص والتهذيب ، وحُسن النظم والترتيب ، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه ، ويحوى فصوصه وعيونه ، من علم قراءاته ، وإعرابه ولغاته ، وغوامضه ومشكلاته ، ومعانيه وجهاته ، ونزوله وأخباره ، وقصصه وآثاره ، وحدوده وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والكلام على مطاعن المبطلين فيه ، وذكر ما ينفرد به أصحابنا رضى الله عنهم من الاستدلالات بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع ، والمعقول والمسموع ، على وجه الاعتدال والاختصار ، فوق الإيجاز ودون الإكثار ، فإن الخواطر في هذا الزمان لا تحتمل أعباء العلوم الكثيرة ، وتضعف عن الإجراء في الحلبات الخطيرة ، إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء ، ومن العلوم إلا الذماء ، وقدمت في مطلع كل سورة ذكرَ مكيها ومدنيها ، ثم ذكر الاختلاف في عدد آياتها ، ثم ذكر فضل تلاوتها ، ثم أقدم في كل آية الاختلاف في القراءات ، ثم ذكر العلل والاحتجاجات ، ثم ذكر العربية واللغات ، ثم ذكر الإعراب والمشكلات ، ثم ذكر الأسباب والنزولات ، ثم ذكر المعاني والأحكام

والتأويلات ، والقصص والجهات ، ثم ذكر انتظام الآيات ، على أنى قد جمعت فى عربيته كل غرة لائحة ، وفى إعرابه كل حجة واضحة ، وفى معانيه كل قول متين ، وفى مشكلاته كل برهان مبين ، وهو بحمد الله للأديب عمدة ، وللنحوى عدة ، وللمقرىء بصيرة ، وللناسك ذخيرة ، وللمتكلم حجة ، وللمحدث محجة ، وللفقيه دلالة ، وللواعظ آلة » .

بهذه العبارات الواصفة الكاشفة قدّم الإمام السعيدُ ، أمين الإسلام ، أبو علىّ ، الفضلُ بنُ الحسنِ الطبرسىُّ ، كتابه الجليل الذى هو نسيج وَحْدِه بين كتب التفسير الجامعة ، ولم أجد أحسن من هذه العبارات فى وصف هذا الكتاب ، وبيان منهجه ، فآثرت أن أفسح المجال لها ، وأن أجعلها أول ما يطالع القارىء ، ولم يكن ذلك إلا بعد أن تنقلت فى رحاب الكتاب من موضع إلى موضع ، واختبرت واقعه فى كثير مما يعد من مزالق الأقدام ، ومتاهة الأفهام ، ومضائق الأقلام ، فوجدته كما وصفه صاحبه ، وعلمت أنه لم يتكثّر بما ليس فيه ، ولم يعد إلا بما يوفيه .

ولقد قلت إن هذا الكتاب نسيج وحده بين كتب التفسير ، وذلك لأنه مع سعة بحوثه وعمقها وتنوعها ، له خاصية فى الترتيب والتبويب ، والتنسيق والتهذيب ، لم تعرف لكتب التفسير من قبله ، ولا تكاد تعرف لكتب التفسير من بعده : فعهدُنا بكتب التفسير الأولى أنها تجمع الروايات والآراء فى المسائل المختلفة ، وتسوقها عند الكلام على الآيات سَوْقاً متشابكا ربما اختلط فيه فنٌّ بفن ، فما يزال القارىء يكدّ نفسه فى استخلاص ما يريد من هنا وهناك حتى يجتمع إليه ما تفرق ، وربما وجد العناية ببعض النواحى واضحة إلى حد الإملال ، والتقصير فى بعض آخر واضحاً إلى درجة الإخلال ، أما الذين جاءوا بعد ذلك من المفسرين ، فلئن كان بعضهم قد أطنبوا ، وحققوا وهذبوا ، وفصلوا وبوّبوا ؛ إنّ قليلا منهم أولئك الذين استطاعوا مع ذلك أن يحتفظوا لتفسيرهم بالجو القرآنى الذى يشعر معه القارىء بأنه يجول فى مجالات متصلة بكتاب الله اتصالا وثيقاً ، وتتطلبها خدمته حقا ، لا لأدنى ملابسة ، وأقل مناسبة .



لكن كاتبنا هذا كان أول - ولم يزل أكمل - مؤلف من كتب التفسير الجامعة استطاع أن يجمع إلى غزارة البحث ، وعمق الدرس ، وطول النَّفَس فى الاستقصاء ، هذا النظمَ الفريدَ ، القائمَ على التقسيم والتنظيم ، والمحافظة على خواص تفسير القرآن ، وملاحظة أنه فنٌّ يقصد به خدمة القرآن ، لا خدمة النحويين بالقرآن ، ولا خدمةُ الفقهاء بالقرآن ، ولا تطبيق آيات القرآن على نحو سيبويه ، أو بلاغة عبد القاهر ، أو فلسفة اليونان أو الرومان ، ولا الحكم على القرآن بالمذاهب التى يجب أن تخضع هى لحكم القرآن !.

ومن مزايا هذا التنظيم أنه يتيح لقارىء الكتاب فرصة القصد إلى ما يريده قصداً مباشراً ، فمن شاء أن يبحث عن اللغة عمد إلى فصلها المخصص لها ، ومن شاء أن يبحث بحثاً نحوياً اتجه إليه ، ومن شاء معرفة القراءات روايةً أو تخريجاً وحجة عمد إلى موضع ذلك فى كل آية فوجده ميسراً محرّراً ، وهكذا . . .

ولا شك أن هذا فيه تقريب أىُّ تقريب على المشتغلين بالدراسات القرآنية ، ولا سيما فى عصرنا الحاضر الذى كان من أهم صوارف المثقفين فيه عن دراسة كتب التفسير ما يصادفونه فيها من العنت ، وما يشق عليهم من متابعتها فى صبر ودأب ، وكدّ وتعب .

فتلك مزية نظامية لهذا الكتاب ، بجانب مزاياه العلمية الفكرية .

## ٢

وهناك منهجان علميان فى التأليف :

أحدهما : أن يستقبل المؤلف قراءه بما يراه هو ، وما انتهى إليه بحثه واجتهاده ، فيجعله مصاراه ومدفه ، ويحطب فى سبيله ، ويجول فى أوديته ، دون أن يحيد عنه ، أو يجعل لقارئه سبيلا سواه .

وهذا منهج له مواطنه التى يقبل فيها ، ومنها أن يكون المؤلف يقصد بكتابه أهل مذهب معين ، فله أن يفرض اتفاقه وإياهم على أصول المذهب وقواعده ، وأن يخاطبهم على هذا الأساس .

الثانى : أن يقصد المؤلف بكتابه كل قارىء لاقارئا مذهبياً يتفق وإياه فحسب، وهذا يدعوه إلى أن يعرض العلم عاما لا من وجهة نظر معينة ، فيأتى بما فى كل موطن على من الآراء والأدلة ، وله بعد ذلك أن يأخذ بما يترجح لديه ، ولكن بعد أن يكون قد أشرك قارئه معه فى التجوال بين الآراء ، واستعراض مختلف وجهات النظر .

وهذا المنهج أعم فائدة ، وأدنى إلى خدمة الحق والإخلاص للعلم ، والكتبُ المؤلفة على أساسه أقرب إلى أن تكون « إسلامية عامة » ليست لها جنسية طائفية أو مذهبية .

بيد أن المؤلفين يتفاوتون فى هذا النهج ، فنهم من يخلص له إخلاصاً عميقاً ، فتراه يدور مع الحق أينما دار ، يأخذ بمذهبه تارة ، ويأخذ بغير هذا المذهب تارة أخرى ، وإذا عرض المذاهب المختلفة عرضها بأمانة ودقة ، كأنه يُنطِق أصحابها ويُسمِع قراءَه مايقولون ، دون أن يلوى القول ، أو يحرف الكلم عن مواضعه ، أو يغمز أو يلز صَرْفاً عن الرأى وتهويلا عليه ، ومنهم من يكون إخلاصه للعلم دون ذلك ، على مراتب أسوؤها ما يظهر فيه التعصب على مذهب الخصم ، ونبزه بالألقاب ، فترى السنى مثلا ربما تحدث عن الشيعة فيقول : قال الروافض ، وترى الشيعى كذلك ربما تحدث عن السنة فيقول : قال النواصب ، بل ربما تجد الحنفى السنى يتحدث عن الشافعية السنيين ، فيقول : قال الشويفعية . . وهكذا ، وما كان هذا النبز ولا ذاك من ضرورات الحجاج ، ولا من لوازم الجدال بالتى هى أحسن ، الذى هو نصيحة القرآن حتى فى شأن المجادلين من أهل الكتاب ! .

وأريد أن أقول إن صاحب كتاب « مجمع البيان » قد استطاع إلى حد بعيد أن يغلب إخلاصه للفكرة العلمية على عاطفته المذهبية ، فهو وإن كان يهتم ببيان وجهة نظر الشيعة فيما ينفردون به من الأحكام والنظريات الخلافية اهتماما يبدو منه أحيانا أثر العاطفة المذهبية ؛ فإننا لا نراه مسرفا فى مجاراة هذه العاطفة ، ولا حاملا على مخالفيه ومخالفى مذهبه ، والواقع أنه ينبغى لنا أن ننظر إلى هذا المسلك فيما يتصل



بأصول المذاهب ومسائلها الجوهرية نظرة هادئة متسامحة ترمى إلى التماس المعذرة ، وتقدير ما يوجبه حق المخالف فى أن يدافع عما آمن به ، وركن إليه ، فليس من الإنصاف أن نكلف عالما مؤلفاً بحاثة دراكة ، أن يقف من مذهبه وفكرته التى آمن بها موقف الفتور ، كأنها لا تهمه ، ولا تسيطر على عقله وقلبه ، وكل ما نطلبه ممن تجرد للبحث والتأليف وعرض آراء المذاهب وأصحاب الأفكار أن يكون منصفاً مهذب اللفظ ، أميناً على التراث الإسلامى ، حريصاً على أخوّة الإيمان والعلم ، فإذا جادل فنى ظل تلك القاعدة المذهبية التى تمثل روح الاجتهاد المنصف البصير : « مذهبى صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرى خطأ يحتمل الصواب » .

على أننا نجد الإمام الطبرسىّ فى بعض المواضع يمر على ما هو من روايات مذهبه ، ويرجح أو يرتضى سواه .

ومن ذلك أنه يقول فى تفسير قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » .

« وقيل فى معنى الصراط المستقيم وجوه :

أحدها : أنه كتاب الله - وهو المروى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن على عليه السلام وابن مسعود .

وثانيها : أنه الإسلام - وهو المروى عن جابر وابن عباس .

وثالثها : أنه دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره - عن محمد بن الحنفية .

والرابع : أنه النبى صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة القائمون مقامه - وهو المروى فى أخبارنا .

والأولى حمل الآية على العموم حتى يدخل جميع ذلك فيه ، لأن الصراط المستقيم هو الدين الذى أمر الله به من التوحيد والعدل ، وولاية من أوجب الله طاعته » .

فظاهرٌ أن الرواية الأخيرة هى أقرب الروايات تناسباً مع مذهب الشيعة فى « الأئمة » وهى المروية فى أخبارهم ، ولكن المؤلف مع هذا لا يعطيها منزلة الأولية فى الذكر ، ولا الأولوية فى الترجيح ، بل يعرضها عرضاً روائياً مع غيرها ، ثم يحمل الآية على ما حملها عليه من العموم ، وما أبرعه إذ يقول : « وولاية من أوجب الله

طاعته ، إن الشيعى والسنى كليهما لا ينبوان عن هذه العبارة ، فكل مؤمن يعتقد أن هناك من أوجب الله طاعته ، وفى مقدمتهم الرسول وأولو الأمر ، ووجه البراعة فى ذلك أنه لم يعرض للفصل فى مسألة « الولاية » و « الإمامة » هنا ، لأن المقام لا يقتضى هذا الأمر ، ولكنه مع ذلك أتى بعبارة يرتضيها الجميع ، ولا ينبو عنها أى فكر .

على أنه - رحمه الله تعالى - متأثر مع ذلك إلى حد ما ، بما هو ديدن جمهرة المفسرين من إعطاء أسباب النزول أهمية خاصة ، ذلك الأمر الذى يتعارض مع مجىء القرآن عاماً خالداً شاملا لجميع الصور التى تدل عليها عباراته المنزلة من لدن حكيم خبير ، على ما تقتضيه الدقة والإحكام ، ولكن الإمام الطبرسى لا ينفرد بذلك كما ألمنا ، وإنما هو أمر سرى إليه من قبله ، وشاركه فيه من بعده ، ولا شك أنهم لا يقصدون ما قد يفهمه غير الخاصة ، من قصر معانى الآيات على موارد نزولها ، فإن العبرة - كما هى القاعدة المقررة - بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

## ٣

ومؤلف هذا الكتاب رجل بحاثة فى مختلف العلوم ، له تصانيف كثيرة تعد بالعشرات ، ومنها ما هو فى موضوعات مذهبية شيعية .

ومما يلفت النظر أنه عنى بتفسير القرآن الكريم عناية خاصة ، حتى جعلها أكبر همه ، وأعظم مجال لهمته ، وقد كانت هذه العناية صادرة عن رغبة نفسية مُلحّة راودته منذ عهد الشباب ، وريان العيش ، كما يقول فى مقدمة كتابه ، وكان كثير التشوق ، شديد التشوّف ، إلى جمع كتاب فى التفسير على طراز معين وَصَفه ، وجعله هَدَفه ، حتى هيأ الله له ذلك ، وأعانه عليه ، وقد ذرّف على الستين ، واشتعل الرأس منه شيبا ، وناهيك برغبة تصاحب العمر ، فلا تستطيع نوازع الشباب أن تنزعها ، ولا مثبطات الكهولة والشيب أن تصرف عنها ، ثم ناهيك بمثل هذه الرغبة المتمكنة فى نفس رجل علامة كهذا يتدبر وسائل تحقيقها عمرا طويلا ، ويتأتى لها ويتمرس بالتجارب العقلية ، والوسائل العلمية ، حتى ينفذها فى عنفوان فتوته



العلمية ، وقد استحصف عقله ، واكتهل وعيه ، وغزر محصوله ، ووقف على الذروة من صرح العلم والفهم والبيان .

ولقد ذكر المؤرخون لسيرته أمراً عجبا ، ذلك أنه ألف كتابه هذا المسمى « مجمع البيان » ، جامعاً فيه فوائد كتاب من قبله اسمه « التبيان » للشيخ محمد بن الحسن ابن على الطوسىّ ، ولم يكن قد اطلع على تفسير الكشاف للزمخشرى ، فلما اطلع عليه صنف كتابا آخر فى التفسير سماه : « الكافى الشاف من كتاب الكشاف » ، ويظهر من اسمه أنه أتى فيه بما اطلع عليه من تفسير الزمخشرى ، ولم يكن قد عرفه حتى يودعه كتابه الأول ، ويذكرون اسماً آخر لكتاب ألفه بعد ذلك أيضاً وأسماه « الوسيط » فى أربع مجلدات ، وكتاباً ثالثاً اسمه « الوجيز » فى مجلد أو مجلدين ، كل ذلك فى تفسير القرآن الكريم ، ألفه بعد تفسيره الأكبر « مجمع البيان » ، وبعض هذه الكتب يعرف باسم « جامع الجوامع » لجمعه فيه بين فوائد التبيان وزوائد الكشاف .

وقد أردت - قبل الكلام إلى القراء عن المعنى الذى يدل عليه هذا الصنيع من الإمام الطبرسىّ رحمه الله تعالى - أن أختبر هذا الخبر لأعلم هل هو صحيح ؟ وذلك عن طريق الرجوع إلى بعض المواضع المشتركة فى « الكشاف » و « مجمع البيان » كى يتبين الأمر فى ضوء الواقع ، فرجعت إلى أول موضع يظن أنهما يتلاقيان فيه ، وهو تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

فأما الإمام الطبرسى فى كتابه « مجمع البيان » فقد تحدث من ناحية المعنى فى موضعين :

أحدهما : معنى « لا يؤمنون » ، وما يتصل به من بيان عدم التعارض بين العلم الإلهى والتكليف ، لأن العلم يتناول الشىء على ما هو به ، ولا يجعله على ما هو به .

الثانى : معنى « ختم الله على قلوبهم » وبيان الآراء المختلفة فيه ، وقد ذكر أربعة آراء وأيد الرابع منها وقواه بشواهده ، وهذا هو نص كلامه فى هذا الوجه الرابع ، نورده لنضعه موضع المقارنة مع كلام الزمخشرى حتى يتبين الفرق بينهما .

قال الطبرسيّ : « ورابعها : أن الله وصف مَن ذمه بهذا الكلام بأن قلبه ضاق عن النظر والاستدلال فلم ينشرح له ، فهو خلاف من ذكر فى قوله : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ومثل قوله : « أم على قلوب أقفالها » وقوله : « وقالوا قلوبنا غلف » ، « وقلوبنا فى أكنة » ويقوى ذلك أن المطبوع على قلبه وصف بقلة الفهم لما يسمع من أجل الطبع فقال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » وقال : « وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ويبين ذلك قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم » فعدل الختم على القلوب بأخذه السمع والبصر ، فدل هذا على أن الختم على القلب هو أن يصير على وصف لا ينتفع به فيما يحتاج فيه إليه ، كما لا ينتفع بالسمع والبصر مع أخذهما ، وإنما يكون ضيقه بألا يتسع لما يحتاج إليه فيه من النظر والاستدلال الفاصل بين الحق والباطل ، وهذا كما يوصف الجبان بأنه لا قلب له إذا بولغ فى وصفه بالجبن ، لأن الشجاعة محلها القلب ، فإذا لم يكن القلب الذى هو محل الشجاعة لو كانت ، فأن لا تكون الشجاعة أولى ـ قال طرفة :

فالهبيت لا فؤاد له والثبيت قلبه قيمه

وكما وصف الجبان بأنه لا فؤاد له ، وأنه يراعة ، وأنه بجوف ؛ كذلك وصف من بعد عن قبول الإسلام بعد الدعاء إليه ، وإقامة الحجة عليه ، بأنه مختوم على قلبه ، ومطبوع عليه ، وضيّق صدرُه ، وقلبه فى كنان وفى غلاف ، وهذا من كلام الشيخ أبى على الفارسى ، وإنما قال ختم الله ، وطبع الله ، لأن ذلك كان لعصيانهم الله تعالى ، فجاز ذلك اللفظ ، كما يقال : أهلكته فلانة إذا أعجب بها ، وهى لا تفعل به شيئا لأنه هلك فى اتباعها » .

هذا هو نص كلامه ، ومنه يتبين :

(١) أنه ممن يؤيد الرأى القائل بأن الختم ليس حقيقياً ، وإنما هو على معنى من المجاز .

(٢) وأنه يستعين فى بيان ذلك بالآيات المشابهة لهذا الموضع فى القرآن الكريم ،



وبالشعر ، وبقول أبى على الفارسى ، وبما هو مألوف فى العربية من مثل هذا التعبير بإسناد الفعل إلى من لم يفعله ، ولكن وقع بسبب منه ، فالختم أسند إلى الله لأنه بمعناه الذى فسر به كان بسبب عصيانهم لله ، كما يقال أهلكته فلانة وهى لم تهلكه وإنما هلك باتباعها .

وأما الإمام الزمخشرى فى كتابه « الكشاف » فقد عرض لهذا الموضوع فى تفصيل أكبر ، وضرب له كذلك أمثلة من الشعر والكلام العربى ، وأورد فيه بعض الأسئلة وردّ عليها ، ومع كون الفكرة التى يؤيدها الإمام الزمخشرى ، هى نفس الفكرة التى رأينا الإمام الطبرسى يؤيدها ، فإن عبارة الزمخشرى أوسع وأشمل ، وأمثلته من الشعر أوضح فى بيان المقصود ، وتخريجه العربى لهذا التعبير مبنى على دراسة فنية بلاغية مقررة المبادىء بين العلماء ، فلو كان الطبرسى قد اطلع على كتابه « الكشاف » لكان قد أيد ماذهب إليه بما ذكره الزمخشرى نقلا عنه أو تلخيصاً له ، ولكننا لا نجد بين العبارات فى الكتابين تلاقياً إلا على الفكرة ، أما الأمثلة والعرض وأسلوب البحث فمختلفة .

والآن نورد نص الإمام الزمخشرى ، كما أوردنا نص الإمام الطبرسى ، وندع للقراء أن يتأملوا النصين ، على ضوء ما قلناه ، فسيتضح لهم أن الطبرسى قطعاً لم ير « الكشاف » وهو يؤلف « مجمع البيان » .

قال الزمخشرى :

« فإن قلت ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار ؟ قلت : لا ختم ولا تغشية ثَمّ على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه ، وهما الاستعارة والتمثيل ، أما الاستعارة فأن تجعل قلوبُهم ـ لأن الحق لا ينفذ فيها ، ولا يخلص إلى ضمائرها من قِبَل إعراضهم عنه ، واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ـ وأسماعُهم ـ لأنها تمجه ، وتنبو عن الإصغاء إليه ، وتعاف استماعه ـ كأنها مستوثقٌ منها بالختم ، وأبصارُهم ـ لأنها لا تجتلى آيات الله المعروضة ، ودلائله المنصوبة ، كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين ـ كأنما غُطى عليها ،

وحجبت، وحيل بينها وبين الإدراك، وأما التمثيل فأن تُمثَّل - حيث لم ينتفعوا بها فى الأغراض التى كلفوها وخلقوا من أجلها - بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية، وقد جعل بعض المازنيين الحبسة فى اللسان والعى ختما عليه فقال:

ختم الإله على لسان عـــذافر ... ختما فليس على الكلام بقادر
وإذا أراد النطق خلت لسانه ... لحماً يحركه لصقر ناقـــر!

«فإن قلت، لم أسند الختم إلى الله تعالى، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه، وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيرا، لعلمه بقبحه، وعلمه بغناه عنه، وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: «وما أنا بظلام للعبيد»، «وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين»، «إن الله لا يأمر بالفحشاء». ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟ قلت، القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها، وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل؛ فلينبه على أن هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها كالشىء الخلقى غير العرضى، ألا ترى إلى قولهم فلان مجبول على كذا، ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ فى الثبات عليه، وكيف يُتخيَّل ما خُيِّل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم، وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيدُ بعذاب عظيم، ويجوز أن تضرب الجملة كما هى - وهى ختم الله على قلوبهم - مثلا، كقولهم سال به الوادى إذا هلك، وطارت به العنقاء، إذا أطال الغيبة، وليس للوادى، ولا للعنقاء عمل فى هلاكه، ولا فى طول غيبته، وإنما هو تمثيل: مُثلت حاله فى هلاكه بحال من سال به الوادى، وفى طول غيبته بحال من طارت به العنقاء، فكذلك مُثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافى عن الحق، بحال قلوب ختم الله عليها، نحو قلوب الأغتام[1] التى هى فى خلوها من الفطن كقلوب

(١) جمع أغتم، وأصل الغتمة اللون المائل إلى السواد، كأنه وصف به من ليس له قلب صاف، قال المؤلف فى كتابه «أساس البلاغة» فلان أغتم، من قوم غتم وأغتام، وفيه غتمة، وهى العجمة فى المنطق .... الأخذ بالنفس.



البهائم، أو بحال قلوب البهائم أنفسها، أو بحال قلوب مقدرٍ ختمُ الله عليها حتى لا تعى شيئا ولا تفقه، وليس له عز وجل فعلٌ فى تجافيها عن الحق، ونبوها عن قبوله، وهو متعال عن ذلك، ويجوز أن يستعار الإسناد فى نفسه من غير الله، فيكون الختم مسنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز، وهو لغيره حقيقةً، تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى: يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان، والمكان، والمسبب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء عن طريق المجاز المسمى استعارة، وذلك لمضاهاتها للفاعل فى ملابسة الفعل، كما يضاهى الرجل الأسد فى جراءته، فيستعار له اسمه، فيقال فى المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق، وفى عكسه: سيل مفعم، وفى المصدر: شعر شاعر، وذيل ذائل، وفى الزمان: نهاره صائم، وليله قائم، وفى المكان: طريق سائر، ونهر جار؛ وأهل مكة يقولون: صلى المقام، وفى المسبب: بنى الأمير المدينة، وناقة ضبوث وحلوب[1]، الخ.

هذا هو نص كلام الزمخشرى فى الكشاف، وبينه وبين كلام الطبرسى فرق بعيد، ومثل هذا هو الذى جعل مؤلف «مجمع البيان» لا يقنع بما وصل إليه، حتى يصله بما جد له من العلم، فيخرج ما أخرج من كتاب جديد، جمع فيه بين الطريف والتليد!.

• • •

إننى أقف هنا موقف الإكبار والإجلال لهذا الخلق العلى، بل لهذه العظمة فى الإخلاص للعلم والمعرفة، فهذا الصنيع يدل على أن الرجل كان قد بلغ به حب الدراسات القرآنية حداً كبيرا، فهو يتابعها فى استقصاء، ثم يجهد نفسه فى تسجيلها وترتيبها على هذا النحو الفريد الذى ظهر فى «مجمع البيان»، ثم لا يكتفى بما بذل فى ذلك من جهد كفيل بتخليد ذكره، حتى يضيف إلى آثاره العلمية ما جد له بعد أن انتهى من تأليف كتابه، ولعله حينئذ كان قد بلغ السبعين أو جاوزها!.

(١) ضبث بالشىء وعليه: قبض قبضاً شديدا، وهو مثله فى الوزن أيضا، فالناقة الضبوث ضد الناقة الحلوب.

إن هذا اللون من المتابعة ومن النشاط العقلى ، أو المراقبة العلمية العقلية لفن من الفنون ، ماكان منه ، وما جد فيه ، وما يمكن أن يضاف إليه ؛ هو السمة الأولى التى يتسم بها العالم المخلص المحب لما يدرس ، الذى يؤمن بالعلم ، ويعرف أن بابه لم يقفل ، وأنه ليس لأحد أن يزعم أنه قال فى شىء منه الكلمة الأخيرة ، فهو يتابع « السوق العلمية » إن صح هذا التمثيل ، ويراقبها مراقبة الهواة الذين يحرصون على اقتناء الطرف والتحف ، ونحن نجد هذا الخلق العلمى فى عصرنا الحاضر هو الذروة التى وصل إليها علماء الاختراع والكشف ، فإن من تقاليد العلم المقدسة أن تراقب الدراسات ، وتعرف التطورات ، وأن يتجه النظر إلى جديد يُعرف ، لا أن يتجمد تجاه ما عُرف .

إن هذا السلوك العلمى الرفيع هو الذى يوحى به القرآن الكريم ، فإن الله تعالى يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ويأمر رسوله بأن يستزيده من العلم ، ويجعله من أعز آماله التى يتوجه فيها بالدعاء إلى ربه فيقول : « وقل رب زدنى علما » فإذا كان الإنسان مهما أوتى من العلم لم يؤت إلا قليلا منه ؛ وإذا كان المثل الأعلى للبشرية الكاملة ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم محتاجا إلى أن يستزيد ربه علم ما لم يعلم ، فما بالنا بالإنسان المحدود علماً وعقلا ، أليس من واجبه أن يتطلع دائماً إلى كل أفق ليعلم ما لم يكن يعلم .

ولذلك طربت وأخذتنى روعة لصنيع هذا العالم الشيعى الإمامى ، حيث لم يكتف بما عنده وبما جمعه من علم شيخ الطائفة ومرجعها الأكبر فى التفسير « الإمام الطوسى صاحب كتاب التبيان » حتى نزعت نفسه إلى علم جديد بلغه ، هو علم صاحب الكشاف ، فضم هذا الجديد إلى القديم ، ولم يحل بينه وبينه اختلاف المذهب ، وما لعله يسوق إليه من عصبية ، كما لم يحل بينه وبينه حجاب المعاصرة ، والمعاصرة حجاب ، فهذا رجل قد انتصر بعد انتصاره العلمى الأول نصرين آخرين : نصراً على العصبية المذهبية ، ونصراً على حجاب المعاصرة ، وكلاهما كان يقتضى المعاظمة والمنافرة ، لا المتابعة والمياسرة ، وإن جهاد النفس لهو الجهاد الأكبر لو كانوا يعلمون .



٤

فإذا كنت أقدم هذا الكتاب للمسلمين فى كل مذهب ، وفى كل شعب ، فإنما أقدمه لهذه المزايا وأمثالها ، وليعتبروا بخير ما فيه من العلم القوى ، والنهج السوىّ ، والخلق الرضىّ .

وقد يكون فى الكتاب بعد هذا مالا أوافق أنا عليه ، أو مالا يوافق عليه هؤلاء أو أولئك من قارئيه أو دارسيه ، ولكن هذا لا ينقص من عظمة هذا البناء الشامخ الذى بناه الطبرسى ، فإن هذا شأن المسائل التى تقبل أن تختلف فيها وجهات النظر ، فليقرأ المسلمون بعضهم لبعض ، وليُقبل بعضُهم على علم بعض ؛ فإن العلم هنا وهناك ، والرأى مشترك ، ولم يقصر الله مواهبه على فريق من الناس دون فريق ، ولا ينبغى أن نظل على ما أورثتنا إياه عوامل الطائفية والعنصرية من تقاطع وتدابر وسوء ظن ، فإن هذه العوامل مزوّرة على المسلمين ، مسخرة من أعدائهم عن غرض مقصود لم يعد يخفى على أحد .

إن المسلمين ليسوا أرباب أديان مختلفة ، ولا أناجيل مختلفة ، وإنما هم أرباب دين واحد ، وكتاب واحد ، وأصول واحدة ، فإذا اختلفوا فإنما هو اختلاف الرأى مع الرأى ، والرواية مع الرواية ، والمنهج مع المنهج ، وكلهم طلاب الحقيقة المستمدة من كتاب الله ، وسنة رسول الله ، والحكمة ضالتهم جميعاً ينشدونها من أى أفق .

فأول شىء على المسلمين وأوجبه على قادتهم وعلمائهم أن يتبادلوا الثقافة والمعرفة ، وأن يقلعوا عن سوء الظن وعن التنابز بالألقاب ، والتهاجر بالطعن والسباب ، وأن يجعلوا الحق رائدهم ، والإنصاف قائدهم ، وأن يأخذوا من كل شىء بأحسنه ، فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب . ؟

محمود شلتوت